مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد: 23 عدد: 48 السنة: 2019

بانت سعاد من الحمية إلى الهداية

قراءة نماذج من مدح الرسول (ﷺ)

The poem 'Banet Suad', from ignorance to guidance
Reading in models of praising the Prophet PBUH

د.عبد القادر بن فطة[1]

جامعة مصطفى اسطمبولي . معسكر . الجزائر.
Aek055@hotmail.fr

تاريخ الوصول./ :2019/03/26 القبول: 2019/06/18 /النشر على الخط: 2019/09/15

Received: 26/03/2019 / Accepted: 18/06/2019 / Published online : 15/09/2019

الملخص:

إنّ قصيدة بانت سعاد تشكّل رؤية تحمل ملامح ذات الشاعر، وهو يضفي على الألفاظ محسوساته من خلال تجربته النفسية و الفنية تعكس هويته الإبداعية. عجّلت بتفكّك النسيب الساذج و التشبيب المقيت والغزل المتأنّف، وسحبته إلى حياة حاشدة بالطاقة الوجدانية العفيفة . ظلت تهيمن على نفسية كعب بن زهير ملحقة به وشيجة عقدية تفيض خيرا، وتجاوزت الأداء التعسفي إلى أداء صريح استقطب الألباب. فالقصيدة من خلال مدح الرسول صلى الله عليه وسلم حققت تحولا نوعيا من حدود الرؤية الحسية العقيمة إلى أفق مستشرقة تستميل حواس المتلقي لقبول صورة الممدوح.

السؤال المطروح: هل القصيدة من خلا ل مدح الرسول صلى الله عليه و سلم فتحت له أفق التعبير عن رؤية ذات نمط نقيض و بعيد عن التوتر الذي ظل يشغل معاناته في جاهليته ؟

الكلمات المفتاحية: التجربة الفنية، هدي النبوة، الرقي الدلالي، حواس المتلقي.

Abstract

The poem 'Banet Suad' represents a vision that reflects the features of the poet self, when he gives senses to the words through his psychological and artistic experience, as well as reflecting his creative identity, which accelerated deconstructing the naïve amatory poetry, rising it to another life, full of a chaste emotional energy which dominated the psyche of Ka'b Ibn Zuhair.

Through praising the Prophet peace be upon him, the poem achieved a qualitative shift in its field, by going beyond the sterile sensory vision, opening another horizon for the receptor to accept the image of the praised one.

-1المؤلف المرسل: عبد القادر بن فطة الإيميل: Aek055@hotmail.fr

So the question posed: did this poem-through praising the Prophet peace be upon him- open the horizon to the poet to express a contradictory vision of his Djahiliyan (ignorance period) one?

Keywords: artistic experience, indoctrination prophecy, semantic progression, senses of the receiver

مدخل:

قصيدة الشاعر تحمل بيانا دقيقا عن أخلاق الرسول، وتصويرا فريدا يبعث في النفس التجاوب مع اللغة المؤثرة، تجعل القارئ يعيش مع المشاهد، وينتقل من مفردة إلى أخرى دون عناء. و قد طغى على التعبير توازن ذو نغمات معبرة.

لقد كان لها أثر كبير في حياة الإبداع بلغت منه مبلغا عجيبا في رقيّ نشاط العقل، فكانت سلاحه المسخّر في ميدان النظم، وصلت به إلى مرحلة الإنتاج الأصيل و الجديد، فوجد أوج نشاطه في حضن القرآن الكريم، فنضجت ألفاظه وتأصّلت دلالتها. ولذلك انبرى إلى وضع آليات كفيلة بالحفاظ على النظام اللغوي، و عظم ذلك بملامسة ما يكتنزه من ملكة شعرية. حفّزه إلى مدح الرسل ليكون حصيلة ثراء استلهمه من فضائل الرسول لينتفع به الشعراء من بعده.فقد أمدّ القصيدة العربية بذخيرة دلالية للاحتجاج بالكلام الفصيح للتأكيد على مرجعية الشعر العربي الإسلامي في المساجلات، واستنطاق حقيقته المبثوثة في التراث.

البعد الروحي لمفردات المدح:

إن قصيدة بانت سعاد مشحونة بالدلالات التي اجتاحت أعماق النص للخروج من التعسف الجاهلي لتمارس لذة الانغمار في أجواء مفعمة بالمقاصد. فعناية الشاعر بشخصية الرسول صلى الله عليه و سلم دفعته إلى ملاحظة أخلاق النبي الكريم التي ينفرد بها و كانت الدافع إلى استجلاء رقيّها دلاليا، فكعب وقف وقفة تدبّر للكشف عن مستويات استعمال المفردة في موضعها، إنّها تمثّل المضمار العام الذي بموجبه يتم مدح الرسول صلى الله عليه و سلم ، ويكون السياق دعامة الترابط بينها و بين معناها، فالدلالة تكسب المفردة النمو والتطور يتماشى و حاجات المقام (وإنّ لكل كلمة معنى في ذاتها، ومعنى في سياقها الذي ترد فيه، وغالبا ما يكون المعنى السياقي أوسع دلالة،و أشدّ تأثيرا في القارئ و السامع؛ذلك أنّ السياق يوظف عناصر الدلالة كلّها من أجل التعبير عن المقصود) [1]. فالمفردة أخذت الصدارة في الميدان الدلالي المتّصل بكل المسويات اللغوية، فهي تنقل المفاهيم و المقاصد ما يدل على ارتقائها الذي هو معلم توبته.

1. الجاحظ (عمرو بن بحر)، البيان و التبيين ، شرح عبد السلام محمد هارون مكتبة الخانجي مصر ط3 1960م20/1

إنّ المفردة بمعناها العميق الشامل ينطوي على دلالات أبعد مدى وأكثر أهمية من مجرد معان، فهي تشكّل معجما يتطلب معرفة و ذوقا ذا مغاز و أبعاد لغوية و جمالية عميقة، يشمل حركية اللغة وتأمين الانتقال في جو هادئ عبر رحاب نبل النبي الكريم غير منهك للذهن، إضافة إلى وظيفتها الدلالية وظيفة جمالية توفّر للمتلقي وشائج علمية تبدّد السأم و تفتح أسارير الملكة. فالغرض الأساسي للمفردة هو خلق بيئة روحية. والحقيقة فإنّ جهود كعب لا تقف عند هذا الحدّ بل تتعداه أعمق نحو استشراق آفاق مستقبل في مدح الرسول صلى الله عليه و سلم. فهي تتوفّر على مقومات تستمدّ منها دلالتها الصافية على مدار واسع وهو أنّ توبته اكسبته الثبات و الأصالة و بثّ الروح في ألفاظه،

لقد توسّعت دلالة المفردة نتيجة موضعها الحصين في صلب لغة النص خاصة في الأبيات التي اعتذر فيها للرسول ومدحه، فجنّد قدراته للزيادة في إنتاجه. فهي ثمرة انبثقت من اقترابه من النبيّ الكريم عجلت بزوال الأداء اللغوي الجاهلي أمام حضرته علية الصلاة و السلام فكان الانتقال من لغة غير منتظمة إلى لغة أكثر ثباتا و أقلّ تعقيدا. فقد أحضر مهاراته الشعرية التي تكونت لديه عندما كان يعيش تحت ضغط سلطة المجتمع الجاهلي، فلم يلبث اقترابه من الرسول صلى الله عليه و سلم طويلا حتى تمخّض عنه زيادة هائلة من الألفاظ ذات مقاصد جليلة وضعت كوحدة أرقى و أرفع من غيرها، نلمس فيها التجربة الشعرية من خلال معالمها الجليلة التي تدل على ضرورة الاعتراف بهدي النبوة حتى شملت تفاصيل دقيقة عن استقلالية الألفاظ الخاصة باحترام الرسول صلى الله عليه و سلم، اعترف برقيّها و دورها في الأداء، وركّز على روعة تصميمها ودقّة فنيتها و طابع المرونة، إذ هي ضمن أنساق بديعة داخل أسوار السياق أخرجت الدلالة من قواقعها ووّسعت مقاصدها.

فهذه التطورات وتزايد علو الدلالة الناجمة عن ارتقاء لغة كعب بن زهير أمّن للغة ترابطها ووظائفها الأساسية. فلم تعد النظرة إلى اللفظ مجرد تخطيط لشبكة من المعاني، أصبحت بفضلها الدلالة هادفة إلى تنسيق استعمال المفردة، ووترتيب وتحديد نوعية الدلالات لمختلف المقاصد من أجل توفير أعلى درجات الرقيّ، وتوجيه التطور الدلالي لفائدة النظام اللغوي.

إنّ سموّ الدلالة يعكس لنا قيمة الاقتراب من الرسول صلى الله عليه و سلم التي فرضت وجودها على المفردة العربية الجاهلية. وينقل لنا التاريخ بأنّ كعب بن زهير شيّد لها معجما يعدّ قلاعا، إذ حدد أهميتها ومقاصدها في كلّ مواضعها في القصيدة، كما أنّ وجود الرسول صلى الله عليه و سلم أمامه زاد من هيبتها لتنفذ إلى أعماق الدلالة فتساعد على تهذيبها، وتمنع من تسرب أي دخيل يشوّه جمالها اللغوي، و جمال محادثة المصطفى عليه الصلاة و السلام .

تميّزت الألفاظ التي خصها للرسول صلى الله عليه و سلم بميزات جليلة تتمثّل بالشمولية و الواقعية والثبات، و قد انعكست هذه المزايا على المستويات اللغوية بشكل واضح، لعبت دورا حاسما في إعطائه طابعا مميّزا وسيادة مقدّسة للنبيّ الكريم يكفل لها خصوصيتها يمنع انتهاكها و تجاوزها. و تجدر الإشارة هنا أنّ شعراء المديح تفرّدوا بإدراكهم لأهميتها القرآنية لذلك برز فيهم أول المخططين لدلالتها حسان بن ثابت من خلال مدحه للرسول صلى الله عليه و سلم، وبيّن وسائل تخصيص الدلالة بالتركيز على القرائن العقلية و اللفظية قال الشافعي(فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها، وكان مما تعرف من معانيها اتساع لسانها،و أنّ فطرته أن يخاطب بالشيء منه عاما ظاهرا يراد به العام الظاهر

ويستغني بأول هذا منه عن آخره) [1] و كذلك كعب الذي يماثل الحسان في مدح النبيّ الكريم مستعملا ألفاظا بناها على البعد الجمالي، فقد عرّج على الصور اللفظية التي تلامس الذوق و تكشف عن الدلالات المتنوّعة. جسّد اهتمامه بالأخلاق الفاضلة للرسول صلى الله عليه و سلم.

لقد اهتم بصورة خاصة في إضفاء معالم الرقيّ على اللفظ توخيّا لتسرب التميّع و الركاكة، وكنتيجة لذلك أخذت الألفاظ الوضعية بالاضمحلال،و أصبحت غير مأمونة في تحقيق االأهداف، أعلن تذمّره منها وتركها داخل أسوار الاستعمال الجاهلي، سيطرت روح الاستسلام و عكست نفوذ و تأثير شخصية النبيّ الكريم في شاعرية كعب، فكانت على درجة عالية من النظام والجمال، ارتقت إلى دلالات سامية تتجلى في التمييز بين الحق و الباطل، و رافق ذلك جهود الشعراء الذين مدحوا الرسول صلى الله عليه و سلم و إشراقهم مهمتهم مراعاة طرازها العالي الذي يسهم في زيادة الجمال والرونق.

إنّ شكل الألفاظ في رقيّ دلالتها جلب اهتمام النقاد الفائق بالناحية الجمالية، إذ غدت دراساتهم ترمز إلى ارتقاء المفردة التي أوعز بناءها إلى سلطة الدين، و خاصة في الخطاب الذي وجّهه للنبي الكريم الذي يؤكّد على وجود ضوابط كلية موّحدة بين الوحدات التعبيرية(والحق أنّ اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه،فاللفظ احتراز عما وقعت المواضعة عليه من الحركات و الإشارات المفهمة و المتواضع عليه احتراز عن الألفاظ المهملة)[2]

لقد أثّر الرقيّ الدلالي للمفردة في كثير من الشعراء الذين جاءوا عبر الحقب المتعاقبة حتى أنّ كثيرا منهم كتب على نفس المنوال الذي اتّبعه كعب في المديح كالبوصيري. فقد تعاملوا مع المفردة من منطلق تأصيلي، وهذا يعني أنّ نظمهم تمّ من خلال منظور شمولي يجمع بين المتعة الفنية والجمال من ناحية، وأثبتوا أنه ليس مجرد حلقات لغوية بقدر ما هو إشعاع روحي ينبّئ أهل التنطّع من العرب سوف يخسرون جزءا كبير من لغتهم بين هذا الثراء الهائل من الألفاظ التي بزغت مع ظهور الدعوة الإسلامية.

و اليقين العميق بأنّ فضل هذه الدعوة لا يقف عند الفائدة الدلالية، بل هناك سمو في الجمال الخلقي يصدق بقدر من التأنّه و العفاف. إذ لم تكن يوما من الأيام أضعف فعهد قوتها تجاوز القرون، ولم يبد الهون عليها، هيمنت هيبتها وتحولت ذات قوة وسلطان، وتفتّحت أعين الشعراء عليها وهي يومئذ ميدان للإنتاج والإبداع، فاستقرت الأذهان بعد ما كانت مضطربة، وتلقّت النفوس الجلد بقدر ما كانت تعاني من خصومات(لقد أثبت القرآن جدارته بصفة الربط بين المتلقي والنص بوشائج

2 . الشافعي (محمد بن إدريس)، الرسالة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية بيروت1339هـ ص52

3 . الآمدي (سيف الدين محمد بن علي) ، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق عبد الرزاق عفيفي، ط 1 المكتب الإسلامي بيروت 1981،ص 95

4 . أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية،ط 2 دار المكتبي دمشق سوريا 1419 ،ص 29 . 30

متينة ، وهذا الاستحقاق يكمن في ديمومة ربط المرء بالواقع : الواقع النفسي القدرة على إثارته على ومرّ العصور ، فتنبش في مكونات أساسية في السلوك البشري ، و ههنا مخاطبة الخالق لما خلق .) [1]

إضافة إلى ذلك أنّ أهم مظاهرها الأصيلة الاستقرار المرتبط بأخلاق الرسول صلى الله عليه و سلم الذي أكسبها موقعها الحصين في شعر الدعوة، جذب إليها الملكات النقيّة للعيش معها في أمن، وكشفت عن أصالتها في الفهم و القدرة على الابتكار، ولم تلبث حتى تمخّض عنها ازدياد في النشاط للشعر الإسلامي خدمة للقرآن الكريم لفهم ما يصعب من دقائق ألفاظه، و توضيح جمالها الصوتي. فالاستقرار الدلالي في مدح النبيّ الكريم شكّل أهم مكوناتها التي وجدت الأرضية خصبة في النص.

لم يقتصر الرقيّ الدلالي للفظ على الاستقرار بل كان هناك مظهر آخر هندس شبكة الكلمات حتى صارت كالحدائق الخلابة، ساهم في تنسيق أفكار كعب بن زهير، و تحديد نوعية المفردة لمختلف التراكيب من أجل توفير أعلى درجات الرقيّ وعناصر الجمال ألا وهو الانسجام الذي أبعد الفوضى والانزعاج والضرر الصوتي. فالانسجام يبني المفردة بشكل متين وعجيب خال من التعرّج، لا يترك فراغات للطاعنين في شخصية الرسول صلى الله عليه و سلم لينفذوا إلى أعماق النص فيجفّفوا الهيكل الدلالي للفظ فتغيب أشكالها الزخرفية و الجمالية. أعطاها طابع الثبات مما جعلها مستقرة و آمنة، وأضفى عليها البساطة و المتعة، و قد منحها أهمية خاصة لكونها تمدّ الحماية لشخصية المصطفى عليه الصلاة و السلام كما أنّها بمرور الزمن أصبحت لها السيادة في التأليف. كما سمح للشعراء أن يقدّموا قمة إنتاجهم من تنظيم أفكارهم وفق مبادئ القرآن، يمنع الانتهاك والتجاوز الشخصي للنظام اللغوي.

فالشاعر حرص على وضع ضوابط كافية للحفاظ على البنية اللغوية لقصيدته تحرّيا للنطق السليم، وتحقيقا لمدح الرسول صلى الله عليه وسلم، فالجمال الصوتي و الرقيّ الدلالي في القصيدة أماط اللثام عمّا جفاه الاستعمال العربي، وتنكبت له ألسنة المشركين، فاستمال حواس المتلقي لمتابعة مسار شخصية الرسول الكريم ضمن المجرى الأدائي العام المبني على الزخم اللغوي المكثّف، و القدرة على توزيعه فيه، و تطويع ذوق الطامح إلى كسب إحساس خفيّ يومئ إلى علاقة روحية مع عظمة النبيّ الكريم. إنّه عنصر اتّسع مداه في أعماق النص الشعري. فالجمال الصوتي والرقيّ الدلالي لا يقفان عند تصوير الكلمات، إنّما يثير نفحة حسية لتستقر لدى القارئ ملامح الهداية، و تثبّت فيه الجانب الديني، و أصول العقيدة التي رسّخها النبيّ في الأفئدة.

السمو الدلالي للمفردات في ضوء نماذج قرآنية:

لقد أدرك الشاعر بوعي أنّ مجرى الرقيّ الدلالي بدا ملتزما بهذا الزخم للألفاظ التي ارتبطت بأخلاق الرسول صلى الله عليه و سلم الذي فعل فعله في نفس أهل الفصاحة، وكشف عن جمالياتها و أسرارها أسقط وظيفة اللفظ الجاهلي، وثبّت وظيفة المفردة الإيحائية القادرة على منح العمل الإبداعي وتبلوره. وحين نستجلي القصيدة تطالعنا في مضامينها على رؤية

متنامية للشاعرية الشاعر غيّبت النمط التقليدي ومعطياته وسحبه إلى الرَّس في الأبيات التي خصّها للنبيّ الكريم، لهذا أسرع إلى فتح مجراها القرآنية تدفعه في ذلك بواعث روحية تحمل على قناعة بالقدرة على تفجير ما تكتنزه لغة كعب.

وحين نتابع مجوعة من النماذج الرقيّ الدلالي للألفاظ، نرصد نمطا جديدا للمفردة العربية نقيم عليه حكما حاسما يتمثّل في التعويض النفسي و العلمي عن حرمان العقل من أفق مشحون بالدلالات الراقية. إنّها الحقيقة التي نراها تتحقق بوضوح في نتاج عدد كبير من الشعراء عبر العصور.

انفرد الشاعر بانتقائه الكلمات للكشف عمّا تتضمّنه من معاني سامية وأغراض عامة لذلك وردت كلّها مناسبة لمقام الرسول صلى الله عليه و سلم، وتخيّر مواقعها التي توحي إلى ما تختزنه من دلالات من ذلك قوله

فَقُلْتُ خَلُّوا طريقي لاَ أَبَا لَكُمُ فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمنُ مَفْعُولُ [1]

فقوله (فكلّ ما قَدَّرَ الرَّحْمنُ مَفْعولُ) يماثل قول الأحناف في العصر الجاهلي، فقضية القدر كانت فكرة موجودة في سريرة كعب بن زهير منذ زمن بعيد، واستحضرها حين امتثل أمام حضرة النبيّ الكريم، كما أنّ أباه زهيرا كان يؤمن بها (إنّ فكرة القدر كانت فكرة راسخة في ذهن كعب منذ زمن بعيد، و إنّه حين جاء بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم استطاع أن يعبر عن هذه الفكرة التي تأصلت في نفسه كما تأصلت في بيتهمن قبل أبيه زهير) [2] .

لقد وضع الكلمة على هذه الهيئة ليكشف عن أهمية تأليفها وفق سياق كامل بيّن. (فقدّر) تحدّد بصيغتها معنى الحدث المعلوم، وجعلته يكشف ضعف الناس في الدفاع عن أنفسهم. و دلالتها تبلغ المتلقي بما يهدف إليه القرآن من توظيف المفردة بالتماس أسهل السبل لفهم الآية قال تعالى:(مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا) الأحزاب 38 (فقدر) بفتح الدال فهي الحصول على هيئة محدودة، ومأخوذة من القدْر يقصد بها الكمية المعيّنة المتقنة،قال تعالى(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)الحجر 21 و قوله تعالى: (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا) الرعد17 فالقدر هو الإتقان والصدور عن علم. فالشاعر يؤمن بالإرادة الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هي عليه.

أما كلمة(الرحمن) فهي توحي إلى الرأفة بالمرحوم، ودفع الضرر عنه قال تعالى(الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ)الفرقان 26.إنّها عند البشر من الكيفيات النفسانية لأنّها انفعال، ولتلك الكيفية اندفاع يحمل صاحبه على أفعال وجودية بقدر استطاعته و على قدر قوة انفعاله،أما كلمة (مفعولا) فقوله تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) النساء 47 (فمفعول) توحي إلى الامتثال لأمر الله فلا يتنزّه أحد عنه. وسلك بهذه الكلمة هذا المسلك الدلالي ليخالف به ما جرى على ألسنة العرب،

5 .كعب بن زهير ، الديوان، تحقيق علي فاعور، دار الكتب العلمية بيروت 1417،ص65

6. علي أرشيد محاسنة أبو صفية ، قصيدة بانت سعاد، دراسة نقدية ، مجلة جامعة أم القرى العلوم الشريعة واللغة العربية و آدابها، العدد17 1426 ص 517

فما نجده في هذه الكلمات المرام فهو الأصل لا يتطلّب التعقيد و الحشو، فإذا ما خرج على غيرها ضاع المعنى. إنّها تتحدث عن إحاطته بخبايا الكون و خواطر النفوس. و استرسل في إظهار رقيّها، وأظهر قيمتها اللغوية.

فالبيت كلّه نغمة إسلامية، فيها كثير من الملامح العقدية والنفسية. ولا شكّ أنّها فتحت رؤية على عدم المفر و الهروب من قضاء الله وقدره.

ومن الأبيات التي مدح فيه الشاعر مبرزا سمو أخلاقه قوله:

كُلُّ ابن أُنثَى وإنْ طَالَتْ سَلامَتُهُ يَوْمَاً على آلَةٍ حَدْبَاء مَحْمُولُ [1]

و معنى هذا أنّ المشكّكين في حقيقة الموت، كانوا يزعمون أنه ليس قضاء الله و قدره، وغرضهم في ذلك خسيس، حاولوا بسعي دنيء أن يطمسوا حقيقته. و من هنا دمغهم كعب بهذه المفردة في سياق عجيب، حاول أن يثبت إحساسه العميق بانغماره في أجواء روحية، فيها قدرة شعرية متميّزة فجّرت فيه هاجس التوبة، ودليل مقنع أن الحياة لحظة يأس تتّسم بانغلاق حسي، لذلك أسرع إلى الأوبة جعلها تنبعث بعفوية، و هذا يدعو حقا إلى التفكير في قدرة الله وعظمته قال تعالى(وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ) الأنبياء 34

أمّا كلمة (يوما) ففيها استنفار يتناغم مع مبادئ البعث، و لازمة تعصم الخلد، فيه مصير الإنسانية، و ابتزاز الطغاة، لكنّه يوم هو نصير للحق، والرادع للباطل. فالموت ركيزة عقدية يحمل عودة الحياة و مباهج لقاء الله من جهة، ويوم حزن عميق للأشقياء. (يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ)هود 105. 108

فألفاظ البيت رسمت لنا شخصية كعب بن زهير العامرة بالعطاء و الإخلاص أقام عليهما الانتقال من أوهام الغريزة إلى تهذيب السريرة، منتفعا بمدلولاتها قناعة نفسية ووعي في تجاوز رؤية ظلت تهيمن على حياته إلى التفاعل مع واقعه ليفجّر ما يخفي من جماليات و أسرار لاستيعاب آثار الصفاء الذي وجده من جراء اقترابه من الرسول صلى الله عليه و سلم.

أمّا لفظ (آلة حدباء) فتوحي إلى مفترق الطرق بين الدنيا و الآخرة تقرّر بقناعة صورة فيضان الإيمان، هيّأ الشاعر لها مسوغات التهديد بالموت. فالكلمة ليست صورة إبداع، إنّما استعمالها ليشير إلى الاطمئنان والأمان وترغيب النفس للاستعداد للقاء الله، فهي أمر موجه لكلّ إنسان، فيها معان مجازية منها وقار المؤمن وسكينته، وتثبيت الخواطر إنّها منعت الطمع في الخلد، وأومأت بزوال الدنيا.

لقد ألحّ كعب على التنويه بعظمة المصطفى صلى الله عليه و سلم ونبل خصاله فقال:

أُنْبِئْتُ أنَّ رَسُولَ اللهِ أَوْعَدَنِي وَالعَفْوُ عَنْدَ رَسُولِ اللهِ مَأْمُولُ [2]

7. كعبن بن زهير ، الديوان،ص65

8 .كعب بن زهير ، الديوان ،ص 65

في القرآن مفردات تتقارب دلالتها لكنّ السياق يجعل المتلقي يدرك الأبعاد الدقيقة التي تجمع بينهما من جهة المعنى، وهو الذي يحافظ على المقاصد، و يجنّب الوقوع في الخلط، ونستشعر الدقّة في المواضع التي أخذتها في السياق السليم من ذلك قوله تعالى(قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ)آل عمران 15

فكلمة (أنبئت) في البيت توحي إلى الآمان، فقد لخصت المفردة نظرات الشاعر المطمئنة الجامعة بين صدق النبوة وعطايا الرحمن، فالكفار فقدوا لبّهم وأنكروا فضل نبيّهم من وعظ وإرشاد، فالمفردة وقفت فاحصة و محللة لمبلغ الصفح الذي انتهى إليه الرسول صلى الله عليه و سلم، فهذا التراكم الدلالي الذي تتضمّنه كلمة (أنبئت)لم يكتف بانتقائها بل رتّبها ترتيبا محكما كشف عن العمق الحقيقي لها، إن رسول الله توعدني بالقتل وبإهدار دمي، لكنني أعلم يقيناً أن العفو مرجو عنده، ولِمَ لا وهو المشهود له بالرحمة(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)التوبة 128

إنّ التعبير في البيت ازداد قدره، و اتّسعت أسراره هذا ما يفتح الطريق للولوج في كلماته لمعرفة دلالتها التي عرضت في أحسن السياقات، هذا ما نستشعره في كلمة (أوعدني) فالشاعر من خلال هذه المفردة يبيّن ما فيها من معنى يحتاج إلى تأمل فيه، ويستكشف دلالتها، إذ يصل إليها بعد دراسة السياق الذي وردت فيه. إنّها أصل قويم في شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، و قد امتدّ شعاعها الهادي إلى دلالات أخرى حتى استقطبها السياق في أبعاده المتفاوتة. فإذا قرأناه وجدنا الأثر اللغوي للقرآن الكريم بكلّ تشعباته يشكّل القاعدة التي ترسو عليها دلالة الكلمة، جعلها الشاعر عارضة بأمانة، و مقربة بصدق المصطفى صلى الله عليه و سلم، وإنّها لبالغة العمق في الدلالة فقد وثّقت لنا ما كان يساور نفسه من رقة و لطف. تدبّر المفردة و انظر كيف عظّم الشاعر وفاء الرسول صلى الله عليه و سلم.

تحمل دلالة نقية صافية خالية من التأويل، فقد نذهل حين نقف على ما فيها من رقيّ عن صدق الرسول صلى الله عليه وسلم تدلّ على شيء غير عادي فلا يصلح في موضعها غير تصوّر فضل المتحدّث عنه، وتنطوي تحتها الكثير من ملامح الرحمة و الهداية، فالمتلقي يلتمس دقّة التصوير الذي قدّمه الشاعر استقباحا وتشنيعا للجاحدين. كما نلمس فيها تنسيقا بديعا شكّل مدلولا لا يمكن التعبير عنه إلاّ بهذه الكلمة، فإذا لم نحذّق في المفردة فقدنا جانبا من جوانب دلالتها لأنّ الرسول صلى الله عليه و سلم تعرض للطعن عن طريق تقوّل الطاعنين، ونسجّت حوله الشبهات، إذ للمرضى في مخيلتهم صورة مستقبحة عن الرسول صلى الله عليه وسلم فكان الشاعر وافيا في الردّ عليهم.

إنّ المتدبّر في كلمة (العفو) يرى أنها في نماء مستمر، و دلالتها متدفقة، فهي تشرف على مقاصد جليلة، وعلى معاني متأرّجة الفضائل هذا ما نجده في قوله تعالى :(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)الأعراف 199 ، وآثرها كعب لأهميتها وقيمتها الدلالية فهي تبيّن موقع الرسول صلى الله عليه و سلم عليه السلام المتّسم بالصفح وعدم الانتقام، فيها

ملامسة لطيفة و إيماءة موحية، يتّضح ذلك من خلال النسق في حسن ترتيبه و ودقة تركيبه مراعيا المعاني. فالعفو عند رسول الله هو عدم المؤاخذة بجفاء، فلا يعاقب ولا يقابل بالمثل هذا ما قصده الشاعر في البيت وقد نوّه القرآن بهذه الخصلة النبيلة قال تعالى(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)آل عمران 159

فالذوق السليم يدرك العلاقات بين المفردة وما سبقه و لحقه وما تحمله المفردات أنبئت و أوعدني و العفو من أغراض خفية فيها نبل النبيّ الكريم و خلقه، إنّها تشكّل محور ورباط الموقف فيها استيعاب المقصد مع النضج الدلالي، والإشارات السريعة على هدي النبوة.

واستمرّ كعب في الإشادة بأخلاق الرسول صلى الله عليه و سلم فقال:

مَهْلاً هَدَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الْ قُرْآنِ فِيهَا مَوَاعِيظٌ وَتَفْصِيلُ[1]

الألفاظ المشكّلة للبيت نعمة تتناغم مع ضوابط الفصحى، فهي لازمة تعصمها من اللحن وتردع امتداد المعاندة. ومما لا ريب فيه أنّها معطاءة بما تملك من رقيّ دلالي، وستظلّ مكرمة سابغة مادامت محكومة بالمنطلق السليم، لذلك استقام أثرها في نفس الشاعر فلا غرابة في أن تبعث الحياة في ألفاظ جمّة ومباهج الإنتاج الشعري من ذلك كلمات (مهلا ونافلة والقرآن ومواعيظ) تحمل دلالة تتماشى مع طبيعة سريرة كعب، ثمّ ارتقت إلى دلالة المنفعة الحسية التي اجتاحت أعماق النفوس، فأخرجت النفس من همومها للانغمار في أجواء طبيعية مفعمة باللذة الروحية غرضها ديني. فالمفردة دلالتها حافلة بالنعم ترعى حقوق الإنسان وفق العلاقات. فهي تتجه إلى أكثر من مدلول فيها استثارة شعور المتلقي للتفاعل مع الطبيعة والحياة الاجتماعية، فلا يقف عند حدود الرؤيا التي تبثُّ آثارها في التشكيل المرئي، بل تأخذه إلى آفاق يحمل ملامح مؤثّرة في المشاعر التي تثبّت أصول العقيدة.

فكلمة (مهلا) تضخّ النفس بالانفعال المطلوب إلى دواعي الهداية التي تبعث على الاطمئنان لإعادة الحياة إلى أجسام طال عهدها بالضلال. إنّ طبيعة المفردة غير مألوف في الموروث الجاهلي، فهي تتدفّق بالرقيّ الدلالي حققت التحوّل النوعي من السذاجة المفرطة التي حصرتها اللهجات إلى أفق الرؤية الحسية لينتفع بها وعي المتلقي هذا ما جده في قوله تعالى(وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا)المزمل 11 وقوله تعالى (فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا) الطارق(17) فالتمهيل هو تأجيل وتأخير العقوبة لكن مع النبيّ الكريم الاستعطاف والتلطّف، فالشاعر على يقين بأنّ الرسول صلى الله عليه و سلم كامل العقل و النفس لا يعرف الغلّ ولا الدمنة.

أمّا كلمة (نافلة) فلم يحملّها ما لا تحتمل هذا ما نلمسه، توحي إلى مراد النفس دون إجبار وقد ربطها بالقرآن بلا إكراه، ويبدو وجه العجب في المفردة أنّها غير مجافية لسياق النص بل جاءت منتظمة في إطار منسجم مع كلمة القرآن، إذ ما العلاقة بين نافلة و القرآن؟ فالشاعر من خلال المفردة حضّ على اجتناب جلب المشقّة، وإيلائها ما تستحقّه من عناية

9 .كعب بن بن زهير ، الديوان،65

معنوية قبل المادية. فالتعبير جار على أسلوب التلطّف وهو معروف في لغة القرآن قال تعالى(وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا) الإسراء (79 فالنافلة زيادة من الأمر المحبوب لإزالة التأثّم. فالمفردة فيها تخصيص وتنويه بقيمة النبيّ(ص) و دليل على دقّة استعمال القرآن للألفاظ لما تحمله من حس لغوي لم ترق إليه لغة العرب(إنّ المفردة القرآنية تجاوزت حدودها المعجمية وقد تجاوزت أحيانا إيحاءاتها المعهودة، و اعتمدت التأثير الحسي، وحافظت على تلازم الشكل و المضمون)[1] لقد وسّع القرآن من دلالة الكلمة وفق سند قويّ من السياق القرآني ولغته.

أمّا كلمة (مواعيظ) فقد ذهب بها كعب بن زهير إلى ما كان يجهله العرب من دلالة جديدة، فيرسو عندئذ بالمعنى إلى وجهته، وبالمقصد إلى محجّته. فهو يشيد بالقيّم التي لم يعهدها العرب على غير وجهها وفقدوها في واقعهم. جاء بها مخالفة منطقهم كأنّه استلهمها من القرآن الكريم قال تعالى(هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ) أل عمران 138 وقوله تعالى(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) يونس 57 و قوله تعالى(وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ هود 120.

ثبّت القرآن قاعدة لغوية دقيقة في الأخلاق باستعمال كلمة موعظة مقرونة بالقرآن الكريم، يذكر أنّها سمو في الخلق فجمالها مخالف للمأثور والمشهور من لغة العرب. فالقرآن أعطى المفردة حصتها من الرقيّ الدلالي، وحكّمها في التفريق بين الأخلاق والعادات معتمدا على قدرتها الوقادة في رفض التهور، و تقرير ما يرتضيه الحلم مادام المقام يتحدّث عن الرسول صلى الله عليه و سلم الذي لم يستسلم لسلطان الهوى فيقنط من رحمة الله، وينساق وراء عناد الكفار فيغضب، بل طبع قلبه بطابع التصديق لقضاء الله و قدره، ورفع عقله عن نظرات الجاهلين البائسة. و هذا سلوك يدلّ على ثقته بالله. القرآن ربط دلالة المفردة بقرينة السياق، و هي دلالة تعطي لفظ الجميل حقّها. وإذا تأملنا الكلمة في البيت وجدنا النسق يكشف لنا عن مرادها،جاءت معبّرة عن مظهر نبوته، وأبانت عن تجلّده، وما ظهر فيه من بركة بثبات الأنبياء والرسل. فالمفردة صورة حقيقية عن عظمة الرسول و كمال عقله، و في نفس الوقت صورة حقيقية عن جهل المشركين، فحين نرمي بأذهاننا إليهم نراهم كالبهائم و هي لاهثة إلى التكذيب و الأذى تعكس سقم أجوافهم.

واصل الشاعر في مدح الرسول صلى الله عليه و سلم و إظهار نبل خلقه فقال:

إِنَّ الرَّسُولَ لَنورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ مَسْلُولُ[2]

إنّ الرقيّ الدلالي للفظ (النور) فيها غذاء روحي، و دواء نفسي يقذفه الله في النفوس الكبيرة، مع ما فيها من فوائد جليلة يدعو حقا إلى الاقتداء بشخصيته، و التدبّر في قدرته العجيبة المتجليّة في أنبل خَلْقه.

10 . أحمد ياسوف ، جماليات المفردة القرآنية ، ص 34

11.كعب بن زهير ، الديوان ، ص 67

لنا مع المفردة وقفة تأمل في المعجم الدلالي للقرآن الكريم نستجلي بعض معالمها، ونقلّب النظر في رقيّها داخل السياق، ومحاولة المقارنة بينها و بين معناها التقليدي عند العرب، فالقرآن هذّب الكلمة ورفع من شأنها، وخصّها بقراءة القرآن لتكون على قدر كبير من الدقّة و الإتقان و التقيّد بالأحكام، هذا القدر من الدقّة كان مثار انتباه العرب و العجم و إعجابهم به و التنويه به. فما سمعوا من قبل من هو أجود نطقا، و أفهم دلالة، وأسرع إجابة، وصفه العلماء بزينة القرآن و آلية إلهية، حتى يتمكّن الخاطر من التأمل في حقائق تلك المفردة ودقائقها، فعند الوصول إلى ذكر الله يستشعر عظمة الرسول صلى الله عليه و سلم يستنير القلب بنور الله المعرفة قال تعالى(وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا) الأحزاب 46 فالرسول صلى الله عليه و سلم نور لا لبس فيه لا يترك للباطل شبهة إلا فضحها، هذه الكلمة ربطها الشاعر بالسيف إشارة إلى الشجاعة ،إنّه وصف شامل للتقوى وتخويف الفجرة من مخالفة الدين ، و ترهيب أهل العصيان و مؤاخذتهم على عملهم.

فشجاعة النبيّ الكريم تقرّرت بموجب مقاييس أعلى رتبة و أجلّ قدرا و هي موضع اتفاق. إنّها الأصل الأعظم، والركن الأهم في شخصية الرسول صلى الله عليه و سلم ليجد مكانه رحبا في القلوب التي لا يمكن إنكار صحتها، ورفض واقعيتها لما فيها من ليونة و تأني. فالنبيّ الكريم حمى المظلومين في الأرض من أحقاد الظالمين وتعسفهم، فهو خصم لأهوائهم. ومما لا ريب فيه أنّ الرسول صلى الله عليه و سلم الجواد المعطاء بما يملك من بركات سيظل حاميا للحق والعدل مادام محكوما بالمنطلق الرباني.

النتائج:

. إنّ دلالة الألفاظ من خلال الرقيّ الدلالي في مدح المصطفى صلى الله عليه و سلم محصّنة بالوثاقة و الدراية والحفظ. وما لحقها فيما بعد فترة مع الشعراء الصحابة و التابعين الذين قفزوا بها بالتأصيل مستفيدين من هدي النبوة، فأصبحوا أوعى بدلالتها.

. لقد كرّس الشاعر مبدأ التبعية للقرآن بالوعي و الفهم قصد الارتقاء بالمفردة، و جعلها منارا تبعث شعاعها لكشف عن إعجابه بأخلاق الرسول صلى الله عليه و سلم.

. المفردة في هذه الأبيات أعطت ثمارها في العلوم اللغوية و الشرعية، و نتج عنها امتداد يد الشعراء الأمينة لاستخراج جملة من الأسرار.

. ارتقى كعب بمفرداته إلى مستوى عال لا تعسّف فيه، بل هو دال على قيمتها الدلالية، و دقّة استعمالها ، فكان له معجمه الخاص الذي تفرّد به ، وقرّب به الناس إلى الدين والواقع، ليمتثلوا إلى سبل الحقّ.

. انتهى الشاعر بالمتلقي إلى التفاعل مع مفرداته من خلال إبداعه ، ورعاية ضوابطه في المدح و الاعتذار التي لا ينبغي تخطّيها.

التوصيات:

. تعزيز الشعر الإسلامي و توظيفه في إعلام الناشئة بضرورة التواصل النوعي الفعال معه.

. توفير الحماية لشعر النبوة بعد انتشار الأفكار المسيئة للرسول صلى الله عليه وسلم.

. تفعيل الإنتاج الأدبي في هذا المجال من أجل تكوين علاقات متينة مع التراث العربي الإسلامي.

. إقامة تفاعل إيجابي تعليمي مباشر مع شعر النبوة يتمركز في شخصيتنا و دفعه لإعطاء سلطة للسيرة النبوية.

المصادر و المراجع:

1 . الآمدي (سيف الدين محمد بن علي) ، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق عبد الرزاق عفيفي، ط 1 المكتب الإسلامي بيروت 1981

2 . أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية،ط 2 دار المكتبي دمشق سوريا 1419

3 . الجاحظ (عمرو بن بحر)، البيان و التبيين ، شرح عبد السلام محمد هارون مكتبة الخانجي مصر ط3 1960م

4 .كعب بزهير ، الديوان، تحقيق علي فاعور، دار الكتب العلمية بيروت 1417

(5) علي أرشيد محاسنة أبو صفية ، قصيدة بانت سعاد، دراسة نقدية ، مجلة جامعة أم القرى العلوم الشريعة واللغة العربية و آدابها، العدد17 1426

(6)الشافعي (محمد بن إدريس)، الرسالة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية بيروت1339هـ